وطن الأحرار في سوق العبيد

للأستاذ توفيق محمد الشاوى

وقعت الواقعة ، وحدث المستحيل : اتفقت روسيا مع أمريكا ، لا على صيانة سلم العالم وأمنه من خط المنافسة بينهما وتوسيع كل منهما لنفوذه على حساب استقلال الأمم الصغيرة ، ولكن على تقسيم « فلسطين » . وكأن كلا من هذين العملاقين قد شعر بأن فلسطين الصغيرة ، العربية الأبية ، لن تخضع له منفرداً ، فآثر أن يتفقا معاً تجاوزاً عن خصومتهما التي ملأت أسماعها كل بقعة على ظهر الأرض بدلا من الاعتراف بالعجز والتراجع أمام الإباء العربي والمقاومة الإسلامية . فإن كان في ذلك معجزة فليس بغريب أن تأتي فلسطين بالمعجزات ، وإذا كانت فلسطين الصغيرة قد حققت تلك المعجزة بفضل تضامن العروبة معها ؛ وهي بعد لم تبدأ المقاومة العملية والتجربة الدموية التي تتأهب لها ، فإن العالم سيشهد قريباً لبطولتها وجهادها بالمعجزة الأخرى ؛ هي أن تنتصر إرادة هذا الشعب العربي الصغير الأبي على خطط الصهيونية وحليفيها العملاقين مجتمعين . وإذا كتبت فلسطين صحائف جهادها بدماء أبطالها ، وسجلت العروبة تضامنها بنجدة شبابها ، فإن قوى الأرض مجتمعة لن تنال من وجودها واستقلالها ، ولو اتفق على ذلك الروس والأمريكان .

إيه يا فلسطين لا تيأسي ولا تترددي ، ولا يقولن دعاة الذلة والاستكانة ماذا نفعل أمام جحافل الشرق الروسي والغرب الأمريكي ، وأين لنا بالقوة التي تحبط بها إرادة « الأمم المتحدة » فما تلك إلا حجة لجبان يبخل بدمه على مواطن الشهادة ، وبراحته على متاعب الجهاد . أما سليل البطولة ومن تجري في دمه عزة العروبة فإنه يعلم أن هذا « الاتفاق » بين أنصار الباطل إنما هو وهم وتضليل يقصد به إرهابك وإضعاف عزيمتك ، أملا في أن ينصرف شعبك عن المقاومة ويرغب في الاستكانة . فإذا أنت تشبثت بمروبتك وصممت على الجهاد في سبيل استقلالك فستنهار كل هذه « الاتفاقات » وتتحطم هذه المؤامرات في ميدان العمل ولعمري إنه ليس بغريب أن اتفق الروس والأمريكان هذه المرة ؛ فمن ذا الذي لا يتفق على اقتسام شعب لا يقاوم ؟ ومن ذا الذي لا يتفق حتى مع عدوه على اقتسام غنيمة باردة ، ما دام يظن أنها لن تكلفه شيئاً ؟ ولكن مثل هذه الاتفاقات الرخيصة ستذوب وتتلاشى ، وسترين أن دماء أبنائك كفيلة بمحوها متى أيقن العالم أن إرادتك قوية وأنك عازمة على الدفاع عن حقك بالدماء .

إيه يا فلسطين ، أيتها العربية الأبية ، إن هذا الاتفاق الذي يعلنه الصهيونيون نصراً لهم ، سيعمل دعاتهم ما استطاعوا ليوقعوا في روع شعبك الباسل أن الأمر قد قضي ولا سبيل إلى المقاومة ؛ والحقيقة أنك قد ارتفعت بهذا الأمر وشرفت به ، وإن كل أمريكي من المائة مليون الذين يسكنون الولايات المتحدة ليعلم اليوم أن بلاده قد أقدمت على تضحية كبرى باتفاقها مع الروس هذا الاتفاق ، وهو يعرف لماذا أقدمت بلاده على هذه « التضحية » إنه يوقن أنها فعلت ذلك اعتقاداً منها أن ذلك سيجنبها عبء الاصطدام بالمقاومة العربية التي لا تريد مواجهتها وقد أوهمها سماسرة الصهيونية أن هناك شيئاً واحداً يجنبها هذا الصدام ، وهو أن يصدر قرار قانوني من « الأمم المتحدة » ولابد لذلك من رضاء روسيا ، فلتحصل عليه بأي ثمن . فانظري يا فلسطين الصغيرة أي ثمن تدفع أمريكا لتتفادى مواجهة مقاومتك وحدها

الأميركية ، وأحرقتها في الشوارع لأنها عرفت أننا إن شتمناهم ونحن نروج بضائعهم ونشتري أفلامهم نكون قد أيدناهم وقويناهم، وأضحكناهم على أنفسنا .

وبعد فإن يصل عدد (الرسالة) إلى أيدي القراء ، حتى يتكون هذا الجديد الذي أحدث به عن دمشق قد صار قديماً ، وحتى نسمع عن القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والموصل ومكة وعمان والمغرب أدناه وأقصاه وأقطار الباكستان وأندونيسية أخباراً أجل وأعظم ، ثم نسمع من فلسطين الخبر الذي يأكل الأخبار .. خبر الانتصار ، وتحرير الديار .

ولن تقوم للصهيونيين دولة في فلسطين ، ما دام المسلمون في الأرض والله في السماء .

علي الطنطاوي

وهل تظنين أن أمريكا كانت تقبل أن تنتظر موافقة روسيا لتفعل شيئاً لو كانت استطاعت أن تفعله وحدها ؟ فما بالك إذا أصبحت مقاومتك حقيقة واقعة ، وأرادت روسيا أن تطالب بنصيبها في « العمل » مستعينة في ذلك بسلاحها التقليدي « الفيتو » ؟ قسما إن أمريكا تفضل حينذاك أن تهدم « الأمم المتحدة » بدلا من قبول ذلك ...

إيه يا فلسطين العزيزة . إنك ستحققين هذه المعجزة ، وإن أبناء العروبة ليتحفزون للتضحية رهن إشارتك ، ويدفعهم إيمانهم بالمثل العليا والمبادىء السامية التي سيكافحون من أجلها ، غير هابين بدعاه الذلة واليأس ، الذين يتخذون من « الواقع » حجة لبذر أسباب الجزع والاستكانة ، وإن لهم شياطين تعلمهم وتغذيهم بمنطق خادع مضلل ، إنهم ليقولون : كيف تطلبون الانصاف من عالم لا يعرف الإنصاف ، وتنتظرون العدل من دول لم تؤسس إلا على الظلم ، وبماذا تتسلحون ؟ بقوة الروح وعزة النفس في ميدان لا يعرف إلا عدة الحرب وقوة السلاح . والواقع شهيد بذلك ، فالأمم الصغيرة تباع اليوم في أسواق السياسة بيع الرقيق ، وتعرض في مؤتمرات الاستعمار ظاهرها وخفيها عرض السلع . لقد قام مقام الرق الفردي رق جماعي هو الاستعمار بكل صوره من حماية أو وصاية أو انتداب ، هو الرق الأوربي الذي ابتدعه شياطين السياسة ليتحكموا به في رقاب الأمم والشعوب . ألا ترون أوطانكم التي بيعت في هذه « الأسواق » السياسية واحداً بعد الآخر ؟ وما « الأمم المتحدة » إلا سوق جديد من أسواق الرقيق ، فإذا استطاع الذهب الصهيوني والنفوذ الأمريكي أن يتما الصفقة ، وأن يملك اليهود فلسطين كلها أو بعضها ، فقد ضاع الحق ولا سبيل إلى استنقاذه ، وتأيد الظلم ، وما هو بجديد ...

ألا وإننا نرى الواقع ولكن بغير عين الجبناء الأذلاء . ونعلم منه ما هو أشد إيلاماً وأبلغ بياناً ، نذكر أن الذين باعوا فلسطين ، والذين يساومون على برقة وطرابلس لم يدخلوها فاتحين وإنما دخلوها حلفاء لأهلها ، أصدقاء لشعوبها ، بذلوا لهم الوعود وقدموا لهم العهود والمواثيق ، فاطمأنوا إليهم وأمنوا لهم ، حتى إذا انتهت الأزمة ، وزالت عنهم الحرب ، نقضوا العهود وتناسوا الميثاق ، وباعوا إخوانهم في السلاح وأعوانهم في الكفاح ، لا بيع غالب لمغلوب ، ولا قاهر لمقهور ، ولكنه بيع الصديق للصديق ، وغدر الرفيق بالرفيق ووضع القيد في يد الحليف دون العدو . تلك والله الكبيرة التي لا يأتيها الوحش في الغابة ولا يجيزها حتى قانون الذئاب المفترسة ، ولكن يأتيها الأوربي المتمدين ويعاملنا بها الانجليز الحلفاء ...

فما هي القوة إذن ، ولكنها الخيانة والغدر ، وإذا باع الحليف حليفه ، واسترق الرفيق رفيقه ، فإنما يبيع أولا شرفه وكرامته ، ويخلع عن نفسه آدميته . فإذا وُجد في القرن العشرين دول تقوم على هذه الحطة وتثرى من هذه التجارة ، فهو انحطاط جديد في الإنسانية قد أصيب به الأقوياء الذين رضوا أن ينزلوا بنفوسهم إلى أحط درجات الإنسانية ، وأصبحوا هم أنفسهم عبيداً لأطماعهم وشهواتهم ، ولا يغير من هذه الحطة وتلك الذلة التي يمارسونها أن كانوا في يوم من الأيام أقوياء ، وأن تمكنوا بسبب هذه القوة من احتراف ذلك النوع الجديد من « النخاسة » والاتجار بالأحرار ، وإذا كان الرق قد ألغي إلى غير رجعة ، وعلت إرادة الإنسان أن تخضع لسيد مهما يكن ، فإن أشد البلاء أن تصيب النكسة قوماً كانوا أول من دعا لإلغائه ، ولابد لهم أن يفسروا لنا قيام هذه الأسواق الاستعمارية التي يمارسونها ، وأن يقروا ممنا أن العبودية وقد انتفت عن الأمم جميعها ، متى أرادت ذلك وصممت عليه ، فإن وصمتها تمكن أن تلقى على عصابة النخاسين الذين يمارسون حرفة قد أبطلتها الإنسانية ومبادئها السامية .

أيها الأحرار لم يعد بينكم وبين الحرية إلا عزيمتكم وإرادتكم وما العزيمة إلا البذل والتضحية والاستشهاد . لن يضيركم تلك الصكوك الزائفة الباطلة التي يعدها سماسرة « الأمم المتحدة » متى أعلنتم إرادتكم وقوتكم ، وستحول دماؤكم هذه الصكوك إلى قصاصات حقيرة وتضمون حداً لهذه المهزلة التي تمثل على مسرح « ليك سكسس » والتي يراد بها بيع وطنكم فلسطين ، بيع الرقيق ، فإن العالم لم يعد يقر بعد اليوم أن يباع وطن الأحرار في سوق العبيد .

توفيق محمد الشاوي
مدرس بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول